الجواذبُ الأرضيَّةُ والبشريَّةُ ودَورُها في تنميةِ العلاقاتِ الاجتمـــــاعيَّةِ

مُحمّد ياسِر الدَّبّاغ

بسم الله الرحمن الرحيم

والصلاة والسلام على سيِّدنا محمّد رسول الله، وعلى آله وصحبه ومَن والاه، ومَن سار على دَربِه، وطبَّق هُداه، وسَعدَ بلقاءِ الله؛ وبعدُ:

فالله الحمدُ الذي جعلَ الإسلامَ الحنيف عقيدةً صالحة ترفع عن العقول لوثةَ الوثنية، وانحرافَ التفكير، وضلالَ العبادة، وتُطهِّر المجتمعَ من الزَّيغِ وعبادةِ الأصنام –الأرضيةِ والبشريةِ، المادِّيَّة والمعنويَّةِ–، وترفضُ التعلُّقَ والتأليهَ لغيرِ اللهِ تعالى من جواذبَ دنيويةٍ.

لقد دعا الإسلامُ إلى عبادةِ اللهِ الواحدِ الأحدِ المستحقُّ للعبادةِ المتفرِّد بها؛ لأنّه ربٌّ عظيمٌ يستحقُّ التقديسَ والتنْزيهَ والتمجيد.

إنّ اللهَ تبارك وتعالى جعلَ العقيدةَ الإسلاميةَ تُنمِّي علاقةِ المجتمع بما ينبثقُ عنها من تشريعٍ حكيمٍ من لَدُنْ خبيرٍ عليمٍ؛ يُنظِّمُ علاقاتِ الناس بما فيها من أخلاقٍ وقِيَمٍ تنبني عليها أعرافُهم وعاداتُهم؛ ليصبح مجتمعاً متماسكاً مُتأخياً كالجسدِ الواحد يَسُودُه العدلُ، ويضبطُه النظامُ، ويَحكمُه الإنصافُ، وتُنبَذُ فيه بذورُ الخلاف، ويُراعى فيه اجتهادُ الاختلافِ؛ صَوناً للائتلافِ، ومُراعاةً لحُسنِ الاستخلافِ؛ ولِمَ لا؛ فالدِّينُ هو مُوجِّهُ الحياةِ، والسِّيادةُ فيها للهِ تعالى.

إنّه دينٌ فيه الفكرُ الأصيلُ، والفقهُ الدَّقيقُ العميقُ، والعملُ النبيلُ الذي يَبني الحضارةَ الإنسانيةَ طُهراً وحيويَّةً وسمواً. إنّه دينُ اللهُ تعالى الذي يُوجِّه بمعناهُ الواسعُ، ومدلوله الخيّرِ، وقيَمه العليا، وأخلاقه السامية شؤونَ الناسِ تعامُلاً وتكافلاً وتكامُلاً. إنّه دينُ الفطرةِ الربانية والحضارةِ العالَمية التي تَعتبرُ أنّ رُقيَ المجتمعِ يُقاسُ بما فيه من عقيدةٍ صافيةٍ، وفِكرٍ نَيّرٍ مُشرقٍ يَدفعُ إلى التقدُّمِ العِلميِّ، والتشجيعِ العَمليِّ، والابتكارِ التِّقنيِّ، والازدهارِ الاقتصاديِّ، واكتشافِ أسرارِ الكونِ الفسيحِ.

أجلْ: إنّ أخلاقَ الإسلامِ الحنيفِ ثابتةٌ ثباتَ الجبالِ الشُّمِّ الرَّواسي، وإنّ قِيَمهُ الساميةَ لا تتغيَّرُ ولا تتحوَّلُ؛ لأنّ المُسلمَ يتلَّقى الأوامرَ من اللهِ سُبحانه وتعالى الذي لا يَحولُ ولا يَزولُ، ولا تُدرِكُه العُقولُ. وبهذه الأخلاقِ، وتلكَ

القيَم يُحفَظُ المجتمعُ ويتماسكُ، ويُصبحُ وحدةً مُتراصَّةً، وشخصيةً مُتميِّزةً وسطَ الشخصيات العالَمية؛ كالشَّامة بين الناس، يراها الناظرُ ويتمتَّعُ بحُسنها، وجَمالها، ورَونقها، وبَهائها. لقد دعا الإسلامُ الحنيفُ إلى الصدق، والبرِّ ،والعدل، ومعرفة الواجب، وأداء الحقِّ، ووضَع السُّننَ الحميدةَ في طلب الحلال، وحدَّدَ آدابَ الصُّحبة؛ من المُعاشرة والموالاة، والمؤاخاة والمجالَسة، والمحادَثة والمؤانسة، كما وبيَّنَ ضوابطَ الأمرِ بالمعروف والنهي عن المُنكَر وآدابه، ونَهى في مُقابلِ ذلك عن أضداد ما دعانا إليه، وعن مساوئ الأخلاق؛ مما يُؤدِّي إلى فساد الأخلاق و الإفساد في الأرض؛ كما في قوله تعالى :(لَّيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلآئِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّآئِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلاَةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُواْ وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُوْلَـئِكَ الَّذِينَ صَدَقُواْ وَأُوْلَـئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴿ ١٧٧ ﴾ (سورة البقرة)، وقوله تعالى : (وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلاَ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَى وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لاَ يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالاً فَخُوراً ﴿ ٣٦ ﴾ (سورة النساء)، وقوله سُبحانه :(لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلاَحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا) ﴿ ١١٤ ﴾ (سورة النساء)، وقوله عزَّ وجلَّ: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَى أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلاَ نِسَاءٌ مِّن نِّسَاءٍ عَسَىَ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ وَلاَ تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ وَلاَ تَنَابَزُوا بِالأَلْقَابِ بِئْسَ الاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الإِيمَانِ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُوْلَـئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ) ﴿ ١١ ﴾ (سورة الحجرات)، وقوله جلَّ وعَلا : (كَلَّا بَل لَّا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ ﴿ ١٧ ﴾ وَلاَ تَحَاضُّونَ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ ﴿ ١٨ ﴾ وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلاً لَّمًّا ﴿ ١٩ ﴾ وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا ﴿ ٢٠ ﴾) (سورة الفجر)، وقال في مُحكَم تبيانه : (وَعِبَادُ الرَّحْمَـٰنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلاَمًا ﴿ ٦٣ ﴾) (سورة الفُرقان).

ومن الأحاديث الجامعة النافعة و الماتعة قولُه صلّى اللّهُ عليه وآله وصحبه وسلّمَ :(اتَّقِ اللَّهَ حيثُما كُنتَ وأتبعِ السَّيِّئةَ الحسنةَ تمحُها وخالقِ النَّاسَ بخُلقٍ حَسنٍ) (أخرجه ابنُ حجر العسقلانيّ في الأمالي المطلَقة عن أبي ذَرٍّ الغفاريِّ)، وقوله عليه الصلاةُ والسلامُ :

(قُلْ آمنتُ باللهِ ثُمَّ استقِمْ) (أخرجه ابنُ حبّان)، وقوله عليه أفضلُ الصلاة وأزكى السلام : (كلُّ سُلامى عليه صدقةٌ ، كلُّ يومٍ ، يُعينُ الرجلَ في دابتِه ، يحاملُهُ عليها ، أوْ يرفعُ متاعَهُ صدقةٌ ، والكلمةُ الطيبةُ ، وكلُّ خطوةٍ يَمشيها إلى الصلاة صدقةٌ ، ودلُّ الطريق صدقةٌ، (أخرجهُ البُخاريُّ)، وقوله : (مَن نفَّسَ عن مُسلمٍ كُربةً من كُرَبِ الدُّنيا نفَّسَ اللّهُ عنهُ كُربةً من كُرَبِ يومِ القيامةِ ، ومَن يسَّر على مُعسرٍ يسَّرَ اللّهُ عليه في الدُّنيا والآخرةِ ، ومَن سَترَ على مُسلمٍ سَترَ اللّهُ عليه في الدُّنيا والآخرةِ ، واللّهُ في عَونِ العبدِ ما كان العبدُ في عَونِ أخيه) (أخرجه أبو داوودَ)،

وقوله: إيَّاكُمْ والجلوسَ في الطُّرقاتِ . فقالوا : ما لنا بُدٌ ، إنَّما هي مَجالسُنا نتحدثُ فيها . قال : فإذا أبيتُمْ إلاّ المجَالسَ ، فأعْطوا الطريقَ حقَّها . قالوا : وما حقُّ الطريقِ ؟ قال : غضُّ البَصرِ ، وكفُّ الأذى ، وردُّ السلامِ ، وأمرٌ بالمعروفِ ، ونهيٌ عن المُنكَرِ (أخرجهُ البخاريُّ) .

وأخيراً وليس آخراً–انُظرْ أخي هَداكَ اللهُ ورَعاكَ– وتأمَّلِ البيانَ القُرآنيَّ بما فيه من دقَّةٍ وروعةٍ في تحديدِ أعلى القيَمِ وأدناها، وأنّ القيمةَ العُليا، والغايةَ الساميةَ هي إرضاءُ اللهِ تعالى، ومَحبَّةُ رَسولِه مُحمَّدٍ وآله الأطهار وصَحبِه الأبرار وسلَّمَ واتِّباعِه؛ ليكونَ المجتمعُ نقيّاً تقيّاً صافياً طاهراً، باطناً وظاهراً، مُتجهاً اتجاهاً سليماً إلى الرِّفعة والسُّمو، والإعلاءِ والإشراقِ، بعيداً عن التناقضاتِ والأهواءِ؛ ف(اللهُ تعالى يُحبُّ معالي الأمور، ويَكرهُ سِفْسافَها) يقولُ اللهُ تعالى: (قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ ۗ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ) ﴿ ٢٤ ﴾ (سورة التوبة)، ويقول جلَّ وعَلا: (زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۖ وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ) ﴿ ١٤ ﴾ (سورة آل عمران) .